المؤثرات التربوية

محمد سلامة الغنيمي

أبي يام أن يلحق بركب الايمان وآثر الايواء الي جبال الكفر، فهلك مع أمه ومعظم بني قومه، ولم ينج مع أبيه واخوته، ولم تؤثر فيه دعوة أبيه التي استمرت تسعة قرون ونصف.

ذلك الموقف وضعنا أمام قضية من أهم القضايا التربوية، تضاربت فيها الآراء واختلفت فيها النظريات بين المفكرين والفلاسفة قديماً وحديثاً، لماذا لم يتأثر يام بدعوة أبيه، وهل كان سبب كفره تأثره وراثياَ بأمه أم بيئياً ببني قومه؟

وحتي تتضح هذه الاشكالية لابد من دراسة أثر الوراثة والبيئة علي تكوين الفرد البدني والعقلي والنفسي والسلوكي.

أولاً: أثر الوراثة في تكوين الشخصية:-

لقد أولت الشريعة الاسلامية عملية الاختيار بين الزوجين اهتماماً بالغاً، نظراً لما يرثه الابناء من الاباء والاجداد من صفات تؤثر علي تكوينهم بشكل عام، وقد ورد في القرآن والسنة العديد من النصوص التي تؤكد علي تأثير الوراثة في تكوين الشخصية الجسمي والعقلي والنفسي والسلوكي، وذلك قبل أن تخرج أبحاث القس مندل في الشأن بعد قرون، والتي لم يصدقها الغرب إلا بعد جدل طويل دام عشرات السنين.

وقد أكد النبي صل الله عليه وسلم علي ان بعض خصائص الاجداد قد تكمن في الفروع ولا تظهر الا بعد أجيال، فعن أبي هريرة: " أن رجلاً أتي النبي صلي الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله ولد لي غلام أسود، فقال: هل لك من أبل؟ قال نعم، قال ما لونها؟، قال: حمر، قال: هل فيها من أورق، قال: نعم، قال: فأن ذلك، قال: لعله نزعه عرق، قال: ابنك هذا نزعه عرق".

وكما يتأثر الولد وراثياً بأمه يتأثر أيضاً بأخواله، ويدل علي ذلك ما روته أم سلمة, قالت: جاءت أم سليم الي النبي فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحي من الحق فهل علي المرآة غسل إذا احتلمت، فقال رسول الله: نعم إذا رأت الماء فقالت ام سلمة: يا رسول الله، وتحتلم المرآة؟ فقال: " تربت يداك، فبم يشبهها ولدها؟ " وزاد في حديث عائشة دعيها وهل يكون الشبه إلا قبل ذلك، إذا علا ماؤها ماء الرجل أشبه الولد أخواله، وإذا علا ماء الرجل ماءها أشبه الرجل أعمامه.

وقد علل القرآن الكريم اصطفاء الله تعالي لآل إبراهيم وآل عمران الي توارثهم صفات النبوة وخصائص الاستقامة في قوله: " إن الله اصطفي آدم............"

وقرر أيضاً ان الفجور والسوء قد ينتقل من الاجداد والاباء الي الابناء، فقال علي لسان بنو اسرائيل" ما كان امرأ سوء وما كانت أمك بغيا"

وقد روي عن رسول الله صل الله عليه وسلم : " تخيروا لنطفكم فانكحوا الاكفاء وانكحوا إليهم"

وقال للأشح عبد القيس: " إن فيك خصلتين يحبهم الله ورسوله: الحُلم والاناة....." وفي قوله جبلني الله عليها

وقد بينت السنة النبوية التفاوت في الطبائع والصفات، " الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا"

ثانياً: الفطرة:-

هي تلك الصفات والخصائص التي يتوارثها البشر جيلاً بعد جيل من لدن الانسان الاول عليه السلام إلي ان تقوم الساعة، ويتساوى في اكتسابها جميع المكلفون من البشر والتي يقوم علي أساسها الحساب يوم القيامة.

إذاً هي سر التكليف، فالله تعالي قد خلق كل البشر في صورتهم التي تمكنهم من دورهم في خلافة الارض والابتلاء فيها، وجعل لهم حد أدني من القدرات العقلية يميزون بها بين الحق والباطل، ونزعهم لحب الخير وكراهية الشر.

وقد نسبها الله تعالي إليه في قوله: " فطرة الله التي فطر الناس عليها" ، وهذه النزاعات الفطرية قد تنحرف بتأثير البيئة كما قال الرسول صل الله عليه وسلم: " ما من مولود الا ويولد علي الفطرة فأبواه يهودانه أو يمسحانه...."

ثالثاً: البيئة:-

لا يختلف اثنان حول دور البيئة في تكوين الانسان النفسي والسلوكي والجسدي كذلك، فلكل مجتمع نظاماً من القيم والمعتقدات وأساليب العيش التي تحكمه وتتجسد في افراده، يورثها الاباء الي الابناء، فالأطفال اللذين عثر عليهم في الغابات، تأثروا بتلك البيئة فظهرت عليهم علامات وصفات تناسب تلك البيئة من التوحش والقوة، وحدة النظر والجري علي اربع.

إذاً العوامل الجغرافية والاجتماعية والدينية والاقتصادية تؤثر في تكوين شخصية أفرادها بجوانبها المختلفة بما يتلاءم مع كل بيئة ويناسبها من ظروف.

" الاعراب أشد كفراً ونفاقاً" ، حيث يغلب عليهم التفكير المادي، وقسوة الظروف الجغرافية علي غرار الحضر، كما يقول ابن عباس " من سكن البادية جفا ".

وقد نهي الاسلام عن رفقة السوء " واعرض عن الجاهلين" ، وامر بمصاحبة وجالسة الصالحين، " واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم".

وبعد العرض السريع للمؤثرات الثلاثة، يتبادر الي الاذهان سؤالاً مفاده أيهما اكثر تأثيراً في تكوين الشخصية

ان شخصية الانسان محصلة للتفاعل المستمر بين الخصائص الوراثية والنزعات الفطرية والعوامل البيئية، فالمعطيات الوراثية لا تفعل فعلها ولا تؤدي دورها الا اذا تفاعلت مع ظروف بيئة مناسبة، ومن ثم فالمعطيات الوراثية سبباً لكنه غير كاف، ومن خلال تفاعل المؤثرات الثلاثة تتكون الشخصية وتحدث التربية.

ويتفاوت تأثير كلاً منهما من حيث الشدة والضعف بحسب طبيعة الموقف والظروف الملائمة.

التنشئة الاجتماعية

وترتكز عملية التربية كلياً علي الفطرة التي وضعها الله في الانسان من خلال ما وضعة الله في كل إنسان من ميل للطواعية والتقليد لا سيما الصغار، ولذا قال النبي صل الله عليه وسلم : " ما من مولود الا ويولد علي الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه" فالله تعالي قد فطر الانسان علي العبادة، إن نشأ الطفل في بيئة تعبد الله قلدهم والعكس صحيح.

وكما ذكرنا أنفاً أن الانسان مفطور علي إشباع غرائز معينة لولاها لانقرضت البشرية منذ زمن بعيد، مثل الشهوات المادية ومثل حب الحاجة للطعام والشراب وستر العورة أو الشهوات المعنوية مثل حب الظهور أو الجنسية.

وقد انزل الله الكتب وارسل الرسل لتهذيب تلك الغرائز وتقويمها بما يحقق الغاية من خلق الانسان، بحيث لا إفراط ولا تفريط، وجعل الجنة أو النار جزاء علي ذلك.

ومن ثم فعمل الشيطان كله يرتكز حول هذه النقطة " فبعزتك وجلالك لأغوينهم أجمعين" " لعدهم ويفتنهم...".

أما ما يتعلق بيام ابن نوح علي نوح السلام، أثر فيه ما ورثه من أمه من موروثات ظهرت ونشطت في وجود بيئة ساعدت علي ظهورها، في الوقت الذي ساعدت فيه تلك الظروف البيئية علي تنحي موروثاته من أبيه، ويبرز ذلك نجاة اخوته الاخرين من أم صالحة مع أبيهم.

ولذلك قال الله تعالي لإبراهيم عندما سأله " ومن ذريتي"، قال لا ينال عهدي الظالمين" رغم اصطفاء الله لإل ابراهيم، وجعل في عقبه النبوة.

نفس الامر مع أبناء يعقوب عليه السلام فعلوا بيوسف ما فعلوه نتيجة ظروف بيئية ساعدت علي ذلك، وقد أثر فيهم ما ورثوه من خير في التخفيف من حدة انتقامهم من يوسف عليه السلام، وفي اعتذارهم و وتوبتهم علي ما اقترفوه في حق أخيهم.